السترة الخضراء

قصة بقلم محمد منسي

« كل شيء أصبح على ما يرام : ليس ما عندي حبا ، وهذا يخدمني، اذ لم يعد عندي رغبة لذلك . هكذا تكون الاشياء مريحة . استطيع الان أن أعود الى البيت ، وأن أقرفص أمام الكتب ، وأن أنام جيدا . فلن انزل للسوق بعد اليوم . سيكون لدي متسع من الوقت كي أطهو طعامي . منذ ألف سنة لم ألتذ بطبخة واحدة . شيء سخيف ذلك الذي كنت أفعله ، سخيف جدا وليس له أي معنى . الدوران في السوق، التربص عند ملتقى الشوارع ، الانتظار عند الاروقة ، وعينان غير مستقرتان أبدا ، تقفزان على طواري الشارع ، بين الاجناب ، فوق الرؤوس . بحلق مستميتة على المنعطفات : « قد تبزغ فجاة » ، « قد تطل صدفة » ، « لا بد أنها خرجت الان من المنزل وهي تتبختر،تترصدني عند رؤس الشوارع » ، « هي تلك ... مثلها تماما » . شيء مضحك للغاية ، امتلأت بمذاقه الدلع طيلة المدة . كنت أراها وكان وزني يخف مثقلا بالارتعاد ، فأطير اليها حتى اذا وصلتها جررت نفسي بجانبها جرا وكأن رجلاي من قش . وكانت هي تفعل ذلك ايضا ، ولكنها كانت تتحامل وتبقى أمامي ثابتة ، رابطة الجاش كالجندي المجهول . وكنا خلال ذلك نخلص للعبه ، ونفرق في وهم هش . وكنت أقنع نفسي وأظنه لن ينتهي أبدا . اقتناع كاذب ، انني لن أستطيع بعد الان أن أثق بكل ما أقتنع به . ان ما نقتنع به كثيرا ما يجعلنا أضحوكة . انني لم أعد بحاجة لتهويم مجدي « انت سلبي لانك خجول أصلا » . ابدا فالسلبية لا تنشأ عن الخجل ، ولا الايجابية تنشأ عن عدمه . ثم ، فأني لست سلبيا . لقد كنت أفعل دائما كل ما يفعله واحد مثلي ، بتهذيب . واذا كانت هذه جريمتي في عين مجدي ، فاني لا أتوخى منه الاصلاح . لقد عرفت بالتالي ما عندي ، فنفضت يدي ، وأنا لا أشعر بالهزيمة ، ابدا ، كل ما هنالك انني أحسست فجاة بأنها لم تعد تثير بي أي احساس . عندما نظرت الي ، كانت عيناها منطفئتين وخابيتين ، على الرغم من أنهما كانتا مفتوحتين ، ووجهها الزيتوني أصبح رماديا ناشفا . وفي تلك اللحظة لم أشعر بهبوط قلبي ككل مرة ، فقد ظل مكانه يعمل بانتظام ، وأحسست برغبة في أن انظر للثياب الربيعية المعروضة داخل الواجهة، برتقالية ومزركشة كأجنحة الفراش ، بينما تابعت هي سيرها في تؤدة، وقد نظرت خلفها حوالي ثلاث مرات ، وقد بقيت متوقفا أمام الواجهة وأنا أشد نظري على فستان فستقي يتعرض في رقصة ثابتة خلف الزجاج . وتنقلت قليلا قبل أن أرى مجدي . ان مجدي يحكم بصفة محب ملزم مجبور ، لكن الحب عنده هو الحياة لا مفر منه . وقد هنأني بسخرية على قراري بملازمتي للبيت . انه في رايه « هروب للخم » . ليكن ، فليس هناك لزاما علي في تصديق حكمه ، بل اني أشك في مسألة فهمه لي ، وهي في الحقيقة شيء لا يستطيعه . فمرة قال عني اني لا زلت أحب عفاف ، واني بالتالي لن أنجح في متابعة اية فتاة أخرى ، لاني البسها دائما سر عفاف وهي ليست كذلك ، ولما يتكشف سرها الحقيقي أتراجع . أجل يا عزيزي ، أنت حكيم ، ولكنك اليوم لم تفهمني . هكذا يكون الاكتشاف مريحا ، يحل معضلة مزمنة . ولكن لن أغفر لنفسي في هدر ذلك الوقت كله سدى ، فيما لا طائل خلفه . على أية حال ، فان علي من اليوم أن أستغل وقتي في أشياء نافعة مثمرة ».

وسار باتجاه موقف الحافلة بشيء من التبختر ، وكان يشعر في داخله ببعض السخرية لكثير من الناس ، وعلى الاخص اولئك الناس الذين يضيعون وقتهم في أوهام تافهة ، يجرون على الارصفة ويقطعون الشوارع ، وينزرعون للحظات أمام واجهة محل ، وكثيرا ما يحلقون في وجوه نساء مارات وكأنهم يطلبون بديلا لاتعابهم ، ويرددون نشيد صغار التجار . « هوذا » ، وكان يضع احدى يديه في جيبه ويحكم على الشارع عندما تذكر أخاه فجاة . وتخيله الان لا يملك ما يأكله وأنه نافم عليه لذلك . « منذ أكثر من سبعة شهور لم أرسل له شيئا ، سأحول له هذا الشهر » . وطفت على مشاعره لذة التفاني في اعالة اخيه حتى يكمل دراسته . « في العام القادم سيتخرج وسيكون قادرا على اعالة نفسه بنفسه » . وشعر بالذنب لانه قصر في واجبه نحوه . « هذا هو خطأي الفظيع ، لا تحقد علي يا اخي » . وود لو انه يعود صغيرا لكي يصرف عليه كل ما يحصله .

وكان الان يسير الهوينى وهو يحدر شارعا خلفيا يؤدي بالنهاية الى الموقف ، وقد أخذ يضع ميزانية لراتبه ، حيث أعطى لنفسه الحق في صرف مائتي دينار وتحويل الثلث ووضع الباقي في البنك . وقال في نفسه « على أية حال فسأحسب هذا في البيت ، قديما كنت أضيع كل نقودي ، وبالكاد كانت تكفي . كان هناك قرد يبلعها وكنت انا ألقمه » . وكان قد توصل الى ضرورة التوفير عندما نظر الى ساعته وأخرج سيجارة أولعها بارتياح . « سيكون كل شيء رائعا بعد الان ، لا يكدر أبدا » . وكان يشعر بالشفاء المطلق .

كان المساء يتجلى فوق العمارات وخلف الظلال الدافئة اللينة، ذهبيا رزينا . وكان بأمكانه أن يرى البحر أخضر هادئا قاعدا بكل راحة يستمتع بالاصيل . ورأى به نموذجا للعاقل الذي فهم أخيرا نفسه . « تلك هي اللذة » وهام به طيلة المدة التي سارها فوق الميناء الذي كان خاملا في تلك اللحظة ، وود لو أنه يكون بحرا . وكان يشعر بالانتعاش تحت تأثير رياح نيسان الخفيفة والرطبة ، ولولا قليل من البرد لخلع سترته وتمشى بالقميص ، فقد كانت هذه رغبة تراوده وهو مقبل تجاه الحافلة . وعلى زاوية الشارع وأمام الموقف كان ينتصب كشك بائع الدخان والجرائد ، فاشترى علبة سجائر وتقدم من الحافلة التي كانت قد امتلأت لنصفها بالركاب ، فقطع تذكرة وذهب وجعص على أحد المقاعد الفارغة ، وكان يختال على قطاع عريض من المساء المذهب ، بجد ووقار ، وكان الكثير من الناس يأتون اليه يشكون صداعا مزمنا في الراس ، حادا وقاسيا ، فيمنحهم بلمسة رافة وتواضع ذلك الشفاء الذي فقدوه طويلا . كان يمسح بيده على التعساء والحيارى ، وكان ذلك يدفيء قلبه ، « شيء يدعو للزهو فعلا ، فلو أن مجدي هنا الان، لعرفته كم هو فارغ كل ما يفعله ، وكم هو بعيد عن الحقيقة الحقة . وأن لحنه ـ امراة ، امراة ، امراة ـ بلا انقطاع ـ هو لحن تافه ينقصه الوعي . انك غر يا مجدي ، فالحقيقة هي غير ذلك ، انها شيء اخر يكمن في استغلال الوقت . بل الوقت هو الحقيقة » . وتمطت الكلمة امام عينيه حبلا طويلا يستطيع ان يعلق عليه جميع مخططاته . اجل، ان عليه الان أن يخطط أعماله ، وحتى يكون دقيقا في ذلك ، فيجب أن يتحقق من رغباته ويركزها في رغبات نافعة جاده ، أن عليه منذ الان أن يكون جادا دائما . وحتى يصل الى المنزل فسيكون قد توصل الى معرفة كافة رغباته . قديما كان يحب عفاف ، ويحب أن يصبح ممثلا . وكانا يمثلان لديه أمليه العظيمين . وهو لا ينكر حبه المفرط لهما ، ولكن السنين قد جعلت عفاف حكاية قديمة متخلفة في اخر راسه ، لا يذكر منها سوى شوارع ترابية وأشجار خضراء وفستان أخضر مقلم وعينين

لا شكل لهما تائهتين في بحر سماوي كثيف ، وآهات متواصلة ليل نهار ، حائرة في حوام من الدوران الدائم ، وصمت محيط . اما التمثيل فقد تحور الى الكتاب ، انه يأمل في أن يكون روائيا يوما ما ، ذلــك مــا أصبحت عليه رغبته في التمثيل . وعندما كانت الحافلة تتحرك بادئــة سيرها ، كان هو قد توصل الى قرار بدء الكتابة عندما يصل الى البيت . « هذا أروع ما يستقبل به الوقت . شيء لطيف حقا ، أن أكتب وان يطن اسمي في آذان الناس : الروائي الكبير حسني عبد الكريم ، الفنان الاصيل » .

وتململ في مقعده ، وأحب بنهم في أن يبدأ حالا بتخطيط قصــة : عن اي شيء يكتب ؟ « على اية حال هناك اشياء كثيرة يمكن ان اكتب عنها ، انني املك كثيرا من التجارب ، بل انني جــوال تجارب ، وهم يقولون أن الكتابة لا تحتاج الى الفنية والتجارب ، وأنا لا أعدم واحدة منهما ، علي فقط أن أخرج تجاربي واحدة واحدة . سوف أبهر العالم ، وسيرددون اسمي : الكاتب العالمي ، وسيكون ذلك كافيا للدلالة عــلي ، وكل امسية سوف يلتقي الملايين من انحاء العالم على كلماتي ، أجل . ان علي أن أشرع بذلك ، وأن لا أتأخر أكثر مما تأخرت » . وفرك يديه وكانتا دبقتين ، وفكر في أشياء خاصة للكتابة بينما كان يدير عينيه في الركاب ، وكانت الحافلة ممتلئة بالواقفين في الممر . وجلب ذلك انتباهه كفجاءة غير متوقعة . وكان يراهم جميعا يتحدثون ويتلمظون ، وبعضهم يقــرأ الجرائد ، كل واحد كان يريد ان يقطع الوقت ، الا هو ، فقد كان يريده أن يتوقف حتى يصل البيت ليجلس الى الطاولة ويكتب . وكان الان قد بدأ يشعر بحالة المحصور . وقدر الزمن حتى وصول المنزل بنصــف ساعة ، « نصف ساعة ، كثير جدا ، نصف ساعة اخــرى تضيع عــلى الطريق ، كان بأمكاني أن أكتب الكثير » . وكان الاحساس بفداحة فقدان نصف ساعة يتغلغل في داخله شيئا فشيئا . وكلما توقفت الحافلة لينزل بعض الركاب أو يركب اخرون ، كان هو يزداد احساسا بالفداحة يبلغ حد النقمة ، وكان يقول في نفسه « انني لا استطيع بعد الان ان اضيع لحظة ، ان اللحظة هي ميدان حياتي ، انها عمري » . وفي احدى المرات توقفت الحافلة ، وبينما هو ينتظر سيرها من جديد ، شعر بجــواره يخلــو ثم يمتلىء بسرعة ، والتفت ليرى سترة خضراء وشعــرا اسود ينسدل الى أسفل الترقوه ، ووجها زيتونيا . وكانت تضع حقيبتهــا الانثوية السوداء على ركبتيها وتعدل جلستها ، ثم رشقت طرف شعرها الى الخلف بيدها ، وكان هو يراقب كل ذلك « ان بها أشياء كثيرة من بهيه : الوجه والشعر والسترة » . وتزحزح هو قليلا مفسحا لها مكــانا أوسع ، فنظرت نحوه وابتسمت شاكرة ، وقدر لها شكرها بنظرة بليدة ، ولكنه استطاع ان يلمح مسحة الحزن والبراءة التي تطفو علــى وجهها كالزيت . لقد بدت له مظلومة بريئة لا تملك دفع ما اصابها . وأخــذ يفكر في شيء من هذا القبيل . ولم يستطع أن يقاوم أمام هذا الالحــاح الكئيب والمهذب « لا بد أنها فقدت أباها في الحرب وأن أمها قد تزوجت خنزيرا » وأخذ يشعر بذلك النوع من الالام التي تزعزع حتى الجــذور . وايقظت هذه في داخله تلك الايام الكافرة التي قضاها تحت رحمــة زوج أمه . ولكنه جاهد بقوة في سبيل أن ينزعها من احساسه . اذ انــه الان لا يستطيع أن يعطيها وقتا للتألم ، ومع ذلك فقد ناوشته كثيــرا ثم تركزت على شكل فكرة مشجعة للكتابة . وعندما ألقى بعينيه الــى أسفل ، رأى ساقيها الملتفتين بلونهما العنابي الشفاف ، وهمس في داخله : « انهما بديعتان » . ولكنه ، وبسرعة ، أنب نفسه لانه شعــر وكانه يقترف ذنبا ، فقد قال انها تحتاج للتأسي والمواساة ، وسحــب عينيه بلطف عنهما وذهب بهما الى البحر الذي كان الان قد غير لونــه وفقد بعض هدوئه عندما تحرر مــن ضغط الجبال ، وامتد الــى اخر الافق ممعنا في التيه ، وكان يستعرض عضلاته على الصخور المحاذيــة للطريق مستعدا لمباراته الليلية . وفي أقصى الشمال كان الافق ضبابيا ينفرز كالشظايا في جبين الماء الرمادي وينسد لثيما كسور . وأحــس فجاة بثقل عينين تنحطان على جانبه ، فادار راسه ، فالتقى بعينيهــا وهما تنظران للبحر ، وقوي في داخله ذلك الاحساس بالكآبة ، ونبعــت ابتسامة سريعة على شفتيه . وود لو يقول لها أن البحر جميل ، ولكن الكلمات تقلصت في أسفل حلقه وتجمدت كتلة من التفاهة . وظل متطلعا الى صفحة وجهها وهو يعبس بلطف ، نقيا مخلصا لعذابــه ، وكــان حاجباها يتقابلان فوق حبتي ودع ، وأنفها يجلس بكل تهذيب فوق شفتيها اللوزيتين ، وكانت عيناها تنشدان لحنا حسورا . وكانت الحافلة تسرع على الطريق الواسع المنساب غربا مع الساحل ، تستعطف الشمــس وتلاحقها في مسابقة خاسرة ، وكانت تميل وتتلوى . وفي احدى المرات التي مالت بها الحافلة ، اتكأ جانبها على جانبه والتصقا قليلا ، وكــان يستطيع أن يحس بالدفء الذي انطبع على جانبه . وسرت في داخلــه رعدة ارتعشت لها أجزاء ما في أعماقه . ولاول مرة شعر بامتلاء المقعد . وفكر في هذه الصدفة التي جمعتها معه هنا . وقال أنها لن تتكرر قط ، ولهذا يكون الاقدام على الحب تهورا « ان الحب كالضباب مشكــوك فيه ، وهذه صفته الوحيدة ، انه صفقة غير أكيدة » وحاول أن يتناسى وجودها الملحاح والذي سيطر على تفكيره كالوحي . وللحظات ، أحــس بالعجب والانفعال ، وكان يهبط رويدا رويدا في شق مغلق ، ولم يدن ليسمع صوتا قط ، ولكنه كان يحس بانجذاب يهوي به ممزقا قلبــه . وأراد أن ينشغل في أشياء أخرى ، فهي بالتالي ستذهب ولن يراها بعد ذلك أبدا ، وسيكون كل ما يمكن أن يفعله بلا طائل . وكان بعض التوتر قد أخذ يبعق في داخله ، عندما ما كفت هي عن النظر للبحر وعــادت الى جلستها الاولى . وكانت البيوت البيضاء المسقوفة بالقرميد والتي اصطفت على جانبي الطريق فجأة ، شبهه ، فنظر الى ساعته وكــانت تقترب من السادسة والربع ، وأسرعت اليه صورة البيت عاريا وسخــا كما هو ، لم ينظف منذ أمد ، شبه مهجور ، لم يقض به قط يوما كاملا . وكان يرى الى الجدران الصفراء الباهتة والمغلقـــة على هواء قديم ، وكانت الطاولة بلون الخوخ العفن ، ورأى ذلك الخم عدائيا لا يشعــر تجاهه بأي ود . وأحب لو أن الحافلة تظل سائرة هكذا الى الابد ، عندما أحس بفعل المحابس تقودها الى طرف الشارع بصوت مبحوح . وكــان عليه أن ينزل ، فنهض مطمئنا رأسه ونظر اليها راجيا ، ففهمت وكفــت رجليها الى ما تحت المقعد وابتسمت ، وخطا وهو يرد لها ابتسامتهــا بنفس معتملة ، وسار في الممر ونزل مع بعض الركاب . وعلى الارض وقف في مكانه برهة ينظر الى قفاها : « شعرها المنسدل الى أسفل الترقوه ، وسترتها الخضراء » وسارت الحافلة متابعة طريقها . وظلت عينــاه تركضان خلفها متعثرة حتى غابت عنه ، فادار ظهره وترنح على ساقيــه الطويلتين بمحاذاة الرصيف . وكان يعيش في عالم سميك من البؤس والحنق والوقت المهدور . ورفع عينيه وحدق في الشمس وكــانت تنطفيء ، بينما كانت خطوط حمراء داكنة تتكوم على بطن الافق . وأحس بعنقه يتشقق ، ففتح قميصه وعرض صدره للهواء الذي كان يهب قادما من البحر . وتمثل وجهه كقصديرة صدئة . وكان قد اقترب من البيت ، وبدا له أشبه ما يكون بالمنفي . أما هي فقد كانت تقابله بوجه محتقن باللوم والتأنيب وعلى ثغرها تكشيرة تعاسة . وصعدت الى حلقه كلمــة حاقدة ملؤها التخلي . وتوقف لحظة وقد لمعت بذهنه فكرة فغير طريقه ، وانحرف باتجاه المقهى الواقع على الشارع العام ، وأخرج سيجــارة أولعها وفتل عود الكبريت وهو يقذفه بعيدا .

محمد منسي

لجميع مطبوعاتكم :

للطباعة والنشر

بيروت ـ تلفون : ٢٣٠٥١٢